

الحد الحاسم

للأستاذ عباس محمود العقاد

—>>><<<—

من العقول عقل كارلوسول الذى تثنى بقدميه ولا تثنى برأسه :
ترسله وتفصل له ما يعمل فى كل حالة ، فإذا طرأ طارئ لم تسلف
له فيه وصية فلا عمل ولا نصريف حتى يرجع إليك . فالتى
عنده إما معمول بأمر أو متروك بأمر ، وإما حسن كما تراه أو
قبيح كما تراه ، ولا توسط ولا تدرج بين الأمور

ومن العقول عقل كارلوسول المفوض : تنبئه بمرادك ثم تكل
إليه تحصيله كما يريد ، فلا تبيح ولا تمنع ، ولا تقسم الأمور كما
تراها ، بل تدع له أن يقسم ما يشاء حين يشاء

العقل الأول لا غنى له عن الحدود الحاسمة فى الكلام ؛
فالتى عنده إما أبيض أو أسود ، وإما حلوا ومر ، وإما مأخوذ
أو متروك ؛ ولا يجوز أن يكون مأخوذاً فى حال ومتروكاً فى حال ،
ولا أن يكون حلواً ومرأ فى وقت واحد ، ولا أن يكون بين
البياض والسواد تارة ببيض وتارة يسود على حسب الضياء
والظلام ، وعلى حسب الموقع الذى تنظر منه إليه

والعقل الثانى لا يتقيد بالحدود الحاسمة ولا يحتاج إليها ، لأنه
يرى الدرجات بين المسافات ، ويرى الظلال بين الألوان ، ويرى
التشكيلات بين الأشكال

فالتى عنده لا يكون ببيداً وحسب ، ولا قريباً وحسب ،
وإنما يكون ببيداً بمقدار كذا وقريباً على درجة من القرب
مقسومة بين الدرجات ؛ وقس على ذلك سائر ما يدركه ويحده ويعيه
ولغات الأم تبين لنا مقدار نصيبها من العقل السخر ومن
العقل الفوض

فاللغة التى تقل فيها « الظروف » هى اللغة التى قلما يستغنى
أصحابها عن الحدود الحاسمة والأوامر المفروضة ، لأنهم يجهلون
الفروق ولا يدركون وجوه الاختلاف ، إلا إذا بلغت من الظهور
والانتضاح مبلغ التقيض من التقيض ، أو مبلغ الشئ المميز بعلامة
لا تشبه غيرها من العلامات

واللغة التى تكثر فيها الظروف هى لغة العقول المفوضة أو
العقول المتصرفة ، لأنها تلمح الفرق الصغير فلا تقف عند الحد
الحاسم الكبير ، وترى العمل الواحد على أشكال متعددة ،
فلا تحصره فى شكل واحد محدود محتوم

و « الظروف » فى اللغة هو الكفيل باظهار هذه الفروق
الصغيرة ، وتقسيم الدرجات بين المسافات الواسعة . فإذا رأينا
« الظروف » فى لغة من اللغات فتحن إذن أمام ناس متصرفين
غير محددين ، أو أمام عقول تستنبط الفهم من بواطنها ولا
تنتظر حتى يقال لها : افهمى هذا هكذا ، وافهمى ذاك على ذاك المثال
وأحسب أن « الظروف » تقل ، وأن العقول تعجز عن

التصرف لسبب من سببين :

أحدهما طول عهد الاستبداد ، فيتمود العقل إملاء الأوامر
عليه وإسناد القرائض إليه ، فيصدع بما يؤمر ويطيع ثم
لا يتصرف ، وينتظر الارشاد والتسييد فى كل خطوة وعند كل
طارئ جديد

والثانى نشأة الأمة فى بيئة محدودة لم تنشب فيها مسالك
ال عمران ومذاهب التفكير ، فكل ما فيها فروق كبيرة بالوزة ،
ومسافات بيضة شاسعة ، فلا محل فيها للفرق الدقيق ولا للدرجة
الصغيرة ولا للسحة المترددة بين الألوان

وأنت تستطيع أن تفتح « معجم » اللغة من اللغات فتعرف
نصيبها من الحرية أو من سمة العمران بتلك العلامة التى لا تخفى ،
وهى علامة « الظروف » المصوغة أو التى تسهل صياغتها من
الأسماء والأفعال

يضحك الانسان ضحكة السرور ، وضحكة الألم ، وضحكة
التشنى ، وضحكة التهم ، وضحكة الرسامة ، وضحكة الطيش ، وضحكة
المعرفة والحكمة ، وضحكة الجهل والبلاهة ، وضحكة القوة والعمرة ،
وضحكة المجون والاسترخاء ؛ وكله ضحك إذا نظرت إلى اسمه فى
اللغة ... فإذا يفيد هذا الاسم إن لم يميزه ميمز من الظروف ؟

وتقول مثلاً فى عنوان مقال أو قصيدة : « شجاعة الجبلين »
فيفهم العقل المتصرف أو عقل « الظروف » معنى ما تقول

أما العقل الملقى أو عقل الحدود الحاسمة فيعجب حتى يغرب
فى الضحك ويسخر ممن يلقى إليه بذلك العنوان ، لأن المسألة

فهل من الضروري أن يلجأ العقل المتصرف إلى التفريقات والظروف في تعبيراته ؟

وهل إذا قال القائل : « إن النهار مضى والليل مظلم » نحسبه من أصحاب اللغات الفنية التي يتكلمها المتصرفون أو من أصحاب اللغات الفقيرة التي يتكلمها المحدودون الملقون ؟

الجواب هنا ينفع فيه التصرف المطلق ، ولا ينفع فيه الحسم المطلق !

الجواب هنا أن ذلك القائل يكون من المتصرفين إذا قدر أن سامعيه لا يمترضون ذلك الاعتراض السخيف ولا يطالبونه ببيان الحجرات في جميع البيوت والطرقات والأمصار والقارات ، أو باستثناء هو وذلك على حد سواء . فإذا هو سكت بعد تفريقه الموجز فسكوته خير من الإفاضة والتشبيب

وأنه يكون من المحدودين إذا قال : « إن النهار مضى والليل مظلم » ثم سكت عن المزيد لأنه يجهل مواقع الاستثناء كما يجهلها سامعوه

فالتصرف لازم في جميع التفريقات حتى التفريق بين المتصرفين والمحدودين

ومن ثم نستطيع أن نقول : إن « الظروف » والتفريقات تكثر في اللغات الفنية ، ثم ترى أن أصحاب تلك اللغات قد يستفنون عن الظروف والتفريقات ويعرفون كيف يستفنون عنها ومتى يحسن الاستثناء ؛ فلا تمجّل بالاعتراض ولا نحسب أننا متناقضون ، لأن التصرف خلاق أن يتقن هذا التناقض الظاهر عن أذهاننا وأن يفتينا عن الإسهاب حيث لا حاجة إلى إسهاب

ساقني إلى موضوع الحد الحاسم رأي في علاقة الأذنب والديمقراطية قرأته في كتاب « لوناود وولف » المسمى بسند الطوفان ، وسأعود إليه ببعض الشرح والتعليق في غير هذا المقال وخلاصة رأيه أن الشراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجاعات . أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فأبطال القصص « أفراد » مستقلة قلما تتكرر في غمار السواد ، وليست نماذج من طبقة أو طائفة أو قبيل

عنده إما شجاعة وإما جبن ولا يلتقيان . وليس في علمه أن الجبن قد يؤدي إلى الاقدام بعض الأحيان ، وأن الجبان والشجاع في بعض المواقف سيان

ومن هنا كان استغراب الجامدين لا كانوا ينعتونه « بالتفريح » من تلك النواوين ، وما هو بالتفريح ولا بالوصف الموقوف على التفريجة ، ولكنه وصف شائع بين جميع العقول التي بلغت رشدها وخرجت على وصاية « الحدود الحاسمة » أو على وصاية الأسماء والأفعال التي لا تميز بينها الظروف والإضافات

وليس أصعب من إفهام عقل حاسم يتحذلق ويقيم الاعتراضات على مسمع . فأنت إذا قلت مثلاً : إن النهار مضى والليل مظلم ، فذلك تفريق من أصدق التفريقات بين الأضداد : يسمعه العقل المتصرف فيعلم ما منيه لأول وهلة ، وسمعه العقل الحاسم المحدود المتحذلق فيقول لك : كيف ؟ إن النور الكهربائي يضيء بعض الحجرات بالليل ، وإن الستائر لتلق الظلام على بعض الحجرات بالنهار ! وقس على ذلك أمثال هذه الاعتراضات وما تم عليه من الضيق والعجز وقلة التصرف والتواء التفكير

وإلا فأنك إذا أردت أن تمنع ذلك الاعتراض وأشباهه فقد وجب عليك أن تقول : إن النهار مضى والليل مظلم ، ثم تتبع هذا التفريق بإحصاء جميع الحجرات التي تمججها الستائر والنوافذ وجميع الحجرات التي تضيئها المصابيح الكهربائية وغير الكهربائية ، وتعود فتقول : إن النهار مضى والليل مظلم ما عدا حجرة في بيت زيد في طريق كذا في مدينة كيت وكيت بمصر بالقارة الإفريقية ، وهكذا حتى تستوفي بيان جميع الحجرات في جميع الطرقات في جميع الدائن في جميع الأقطار . فإن لم تذهب إلى هذا التفصيل فأقل ما في الأمر أن نعود إلى استثناء لا حاجة إليه ولا مزيد فيه فالذي يدعو العقل المحدود إلى أشباه ذلك الاعتراض ؟ أدقة في فهم ؟ كلا ! بل عجز عن إدراك الحدود بغير إملاء حاسم وعجز عن طلب المعرفة بشغله بالقشور عن اللباب وبالتوافه عن مهام الأمور

وهنا ينبعث لنا من التمثيل مثل آخر للتفريق بين العقل المتصرف المفوض والعقل الحاسم المسخر

كلمة مرمزة -

المتنبى

أبو تمام ، الوزر ، القافية ، التجدير
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

—»»»»»—

في (المدة) لابن رشيقي : ثم جاء أبو الطيب فلا الدنيا ،
وشغل الناس

في (المثل السائر) لابن الأثير : وقفتُ على أشعار الشعراء
قديمها وحديثها فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب
للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض
والمقاصد

في (خزانة الأدب) للبغدادي : التنبي سريع الهجوم على
المعاني

في (شذرات الذهب) لابن العماد : ليس في العالم أشعر من
المتنبى أبداً ، وأما مثله فقليل

قلت ذات مرة للعربي الألمي الأستاذ (رياض الصلح)
— وقد ذكرنا التنبي وأبا تمام — : إن الأول كان يخلق في سماء
الشعر بمعانيه ، وإن الثاني كان ينفوس في بحره على لآليه ، فقال :
يَقِفْ . إذن ، التنبي (طيارة) ... وأبو تمام (غواصة) ...

ولقد جاء الذي شغل الناس ، والذي هو دهره من رواة
قلائده بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن في سجن .
ولولا هذان لأسمك (أحمد) من القريض — الذي هو أعجب ،
وأراك ما هو آتق مما رأيت وأعرب . ولولا هذان لجوَدَت
الأيام أيتما تجويد تسطير ما أبلى قلم يقل :

وعلاقة الديمقراطية بهذا في رأى « لونارد وولف » ومن
يجارونه أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت
الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها
حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد ، أو حين كان
النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان
رأى جميل لا شك في صدقه واحتوائه للكثير من الأصول
والملاحظات ودلالته على سعة المعرفة وحسن التحليل والتعليل
ولكن ما نصيب ذلك الرأى لو وقع للحدودين من أصحاب
الحدود الحاسمة ومن جماعة المطالبين بتمدد الحجرات إذا قيل إن
النهار ضياء والليل ظلام ؟

قبل القرن السابع عشر رسم شكسبير بطله « هملت » وهو
ولا ريب « فرد » بين أمراء جميع الأزمان وليس بالنموذج التكرار
في طبقة الأمراء

وقبل القرن الأول رسم هوميرو أبطاله الفرسان وهم مختلفون
اختلاف أفراد لا اختلاف نماذج

فإن يذهب رأى وولف الجميل لو صدمناه باعتراضات شتى
على هذه الوثيرة ؟

يذهب إلى حيث نحسره ونحسره النقد وميزان الآداب ،
لأن وصف الشخص بعد القرن السابع عشر قد اختلف وكانت
لاختلافه علاقة بالديمقراطية ما في ذلك مرء . وعلينا نحن أن
« نتصرف » في التفريق بين أجزاء ذلك الرأى فنضيف إلى ميزان
الآداب صنجة تعين على الضبط والتمييز . أما إذا أبطلنا الرأى
وعطلناه حتى يعود لنا وولف ببيان الحجرات المضيئة في الليل
والحجرات المظلمة في النهار فتحن الخاسرون لأننا نجعل مواقع
التدقيق لا لأننا نعرف التدقيق في نقد الآراء

الحد الحاسم أو العقل المحدود هو آفة الجامدين الكبرى ،
وهو علة الركود في آدابنا وفنوننا ، ولكننا نتغلب عليه وزروض
عقباته ، ولا نستدل على ذلك بشيء أدل من زهدنا في الجدل
« البيزنطى » علماً بعد عام

عباس محمد المقام